الفصل الثانى

آثار القاهرة الفاطمية

١ — الأسوار والبوابات.

٢ — المشاهد.

الفصل الثانى

آثار القاهرة الفاطمية

(١)

الأسوار والبوابات

زخرت القاهرة فى العصر الفاطمى بالمبانى، وامتدت حدودها إلى القرب من موضع العسكر والفسطاط، شكل (١). وقد تخلف من هذا كله أجزاء من أسوارها وبواباتها وبعض من مساجدها ومشاهدها.

أما الأسوار التى أقامها جوهر، فكانت ترسم مستطيلاً غير منتظم الأضلاع طوله حوالى ألف ومائة متر من الشرق إلى الغرب، وألف ومائتى متر من الشمال إلى الجنوب، شكل (٢). وكانت تلك الأسوار مبنية من كتل ضخمة من اللبن. وكان عرض الجدار فيها يزيد قليلاً عن مترين. وكان بها ثمانى بوابات: بابان شمالا، وهما باب الفتوح وباب النصر، وبابان شرقًا، هما باب البرقية وباب القراطين، وبابان غربًا، هما باب الفرج وباب سعادة، وبابان جنوبًا، هما بابا زويلة[1].

---

(١) أضيف إلى هذه الأسوار فى عهد بدر الجمالى باب فى الشرق، هو الباب الجديد الذى أطلق عليه فيما بعد باب المحروق، وبابان فى الغرب، هما باب القنطرة وباب الخوخة. ويظن (كريسويل) أن باب الفرج كان مفتوحًا فى الأسوار الجنوبية لا فى الأسوار الغربية، (صفحة ٣١ من الجزء الأول من كتابه «العمارة الإسلامية فى مصر»)، وذلك استنادًا إلى نص وقفية خاصة بحدود جامع المؤيد. كان على مبارك قد نشرها فى كتاب «الخطط الجديدة» جزء خامس، صفحة ١٢٦، وفسر (كريسويل) هذا النص على أنه يشير إلى باب الفرج، والواضح من النص أنه يشير إلى الطريق الذى كان يمتد من شرق القاهرة إلى غربها ويؤدى إلى باب الفرج، مارًا بجامع المؤيد. وقد أشار المقريزى فى صفحة ٣٨٠ من الجزء الأول من «الخطط» إلى أن موقع باب الفرج كان فى الأسوار الغربية. يراجع نص الوقفية فى صفحة ١٢٦ من الجزء الخامس من كتاب «الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة». تأليف (على) مبارك، ٢٠ جزءا، المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٣٠٥هـ - ١٣٠٦هـ / (١٨٨٨م - ١٨٨٩م).

وكانت أهم البوابات فى عهد جوهر بوابة الفتوح فى منتصف الأسوار الشمالية، وبوابة زويلة فى منتصف الأسوار الجنوبية، وكان يصل بين هاتين البوابتين الطريق الرئيسى الذى أطلق عليه «ما بين القصرين». وكان هذا الطريق يقسم القاهرة قسمين متساويين تقريبًا. وكان بها طريق رئيسى آخر يجتاز المدينة من الشرق إلى الغرب، شمالى المسجد الأزهر، ويصل بين أسوارها الشرقية من باب البرقية، وبين أسوارها الغربية أمام باب سعادة.

وكان بالقاهرة أحياء متسعة عامرة، كانت تسمى حارات أو أخطاط[1]. أكثرها شهرة حارات زويلة والجوذرية والوزيرية والباطلية والمحمودية والبرقية وحارتا الروم وكتامة، وكانت كلها مختطة من وقت تخطيط القاهرة ومنسوبة إلى قوم أو قبائل كانوا فى صحبة جوهر الصقلى[2]. ومنها حارة برجوان التى كانت بها دار المظفر ابن أمير الجيوش، وحارة الديلم التى كانت بها دار الصالح طلائع بن رزيك، وحارة الأمراء التى كانت بها دار الوزير عباس فى عهد الخليفة الظافر، ومنها خط الخرنفش، أو الخرفنش، الذى كان ميدانًا للخلفاء، ومنها رحبة باب العيد.

كانت هذه الأحياء منحصرة داخل أسوار القاهرة. وكانت هناك أحياء زاهرة أخرى خارج هذه الأسوار، منها خط الحسينية خارج باب الفتوح، وكان يتكون من ثمانى حارات، ومنها أرض الطبالة المنسوبة لامرأة كانت تغنى للخليفة المستنصر، ومنها المقسى والتبانة واليانسية واللوق وغيرها.

وكان للخلفاء الفاطميين مناظر ومنتزهات كثيرة داخل القاهرة وخارجها. منها منظرة الأزهر ومنظرة اللؤلؤة ومنظرة التاج ومنازل العز ومنظرة الأندلس وقصر الورد. وكانت المناظر شبيهة بالاستراحات يجلس فيها الخلفاء أو ينزلون للراحة أو لاستعراض الجيوش أو للنزهة وغير ذلك.

ومن ذلك ما قيل فى قبة الهواء «وهى مستشرف بهيج بديع يحيط به عدة بساتين لكل بستان منها اسم، ولهذه القبة فرش معدة فى الشتاء والصيف» و «كانت من أحسن منتزهات الخلفاء الفاطميين».

---

(١) وصف المقريزى بالتفصيل هذه الحارات والأخطاط فى صفحات ٢ إلى ٣٧ من الجزء الثانى من الخطط.

(٢) انظر صفحات ٣٥٦ إلى ٣٦٣ من الجزء الثالث من «صبح الأعشى» تأليف القلقشندى بيان مختصر بهذه الأحياء.

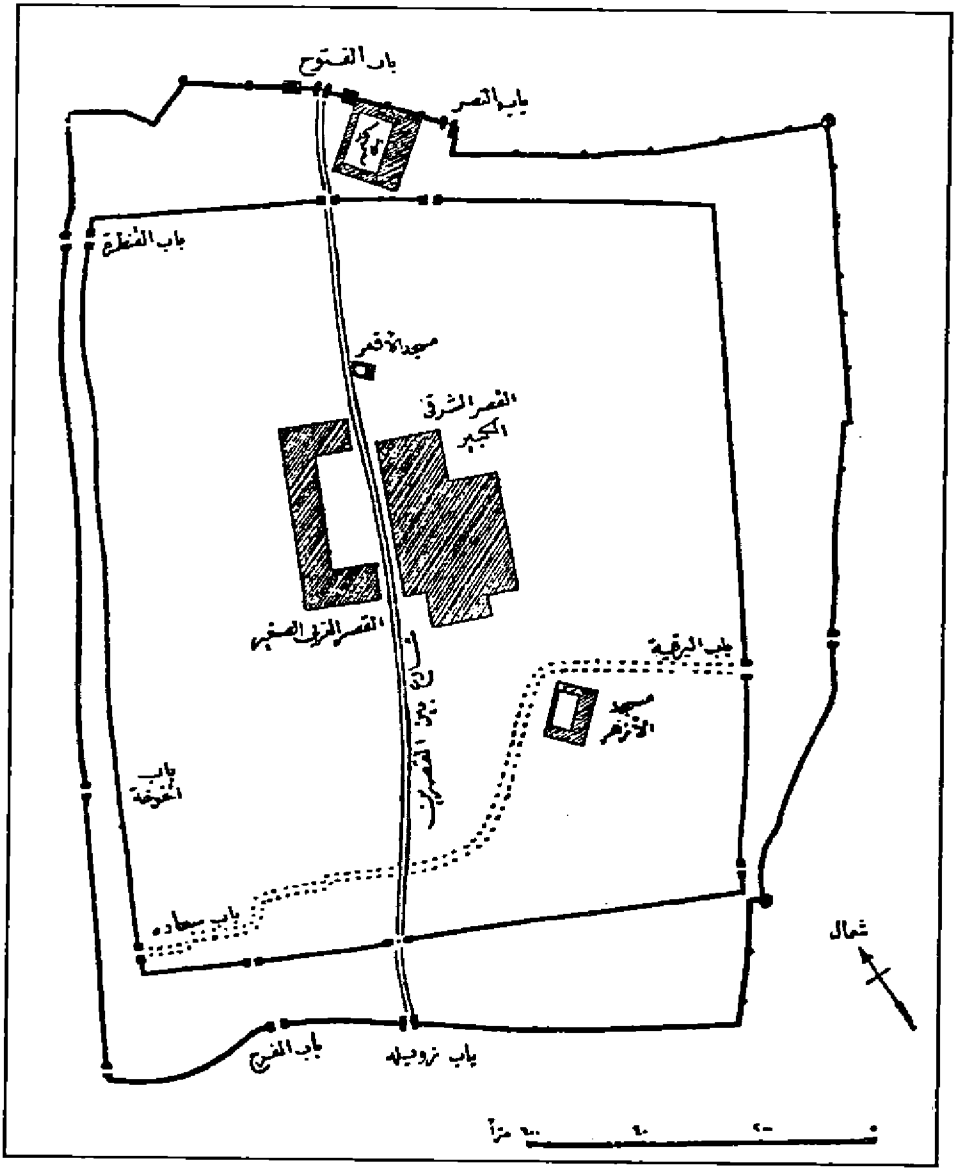

شكل (٢) — حدود القاهرة على عهدى «المعز» و «بدر الجمالى» (من رسم المؤلف)

اندثرت هذه الأحياء والمنتزهات أو تغيرت معالمها، وتبقت بعض أسوار القاهرة وبواباتها. وكانت الأسوار التى بناها جوهر الصقلى قد تهدمت، فجددها وعمرها أمير الجيوش بدر الجمالى، فى أيام الخليفة المستنصر بالله. بدأ العمل فيها سنة ٤٨٠هـ / (١٠٨٧م) وتم بناؤها سنة ٤٨٥هـ / (١٠٩٢م). ونقل بدر الجمالى جزءًا من الأسوار الشمالية مسافة مائة وخمسين مترا تقريبًا إلى الشمال، كما نقل جزءًا من الأسوار الجنوبية مثل تلك المسافة إلى الجنوب، كما يتضح من شكل (٢). وقد بنيت الأسوار الجديدة، جزء منها بالآجر، ومعظمها من الحجارة. وأقام بدر الجمالى ثلاث بوابات جديدة عظيمة من الحجارة، هى باب النصر وباب الفتوح شمالا، وباب زويلة جنوبًا. وما تزال هذه البوابات قائمة إلى اليوم. اللوحات أرقام (٤ إلى ٧). وكذلك تخلف من أسوار بدر الجمالى الجزء الذى يصل بين بوابتى الفتوح والنصر وجزء يمتد حوالى خمسين مترًا إلى الجنوب من هذه البوابة الأخيرة، وجزء آخر يمتد حوالى مائة متر إلى غرب بوابة الفتوح، لوحة رقم (٧). ويصل هذه الأسوار جميعًا بالبوابات ممر فسيح يجرى على سطح الطابق الثانى الذى فتحت فيه نوافذ ضيقة لرمى السهام. والطابق الثالث مكشوف، أقيمت على جانبه شرفات، لوحة رقم (٨).

وبوابات بدر الجمالى أبنية ضخمة، سواء من حيث المساحة التى تشغلها كل بوابة، وهى حوالى ٢٥ مترًا مربعًا، أم من حيث ارتفاعها الذى يزيد عن عشرين مترا، أم من حيث الكتل الحجرية التى استخدمت فى بنائها[١].

ويمتاز بنيان هذه البوابات بكتله الحجرية المصقولة مسطحاتها، المنتظمة صفوفها، والتى يبلغ عددها من أسفل الجدار إلى قمته حوالى أربعين صفا، رصت فيها الحجارة الضخمة بصورة تثير الإعجاب، وتفصح عن دقة الحرفة. كما تمتاز باستخدام عمد من الحجارة، دفنت أفقيًا فى باطن الجدران، فى الصف السادس أو السابع فوق سطح الأرض، فتزيد البناء ثباتاً، وتضيف إلى منظره رونقا.

---

(١) تتفاوت أحجام هذه الكتل الحجرية بين متر ومائة وخمسة وسبعين سنتيمترا طولاً، وبين أربعين وستين سنتيمترًا عرضًا وارتفاعًا.

وكانت بوابة النصر، لوحة رقم (٧)، أول بوابة أقامها بدر الجمالى فى الأسوار الجديدة. بدأ البناء فيها سنة ٤٨٠هـ / (١٠٨٧م)، وعليها نقش كتابى منحوت على الحجارة يسجل تلك السنة[1]. ويتعدى مقاس فتحة البوابة من الجهة الجنوبية ثمانية أمتار، وبعد أن يجتاز العابر منها إلى خارج الأسوار عشرة أمتار يتراجع جدار البوابة نحو الداخل مترًا من كل ناحية، ثم يتراجع مرة ثانية، بعد ثلاثة أمتار ونصف المتر، من كل ناحية كذلك، حتى تضيق فتحتها، فتبلغ خمسة أمتار، أو أقل من ذلك. وهذا هو موضع مصراعى الباب الخشبى. ثم يتراجع الجدار نحو الخارج مرتين، فى الجهة الشمالية، وتتسع فتحة البوابة من جديد حتى تقرب من مقاسها عند بدايتها جنوبا.

ويبلغ طول ممر البوابة واحدًا وعشرين مترًا، وهو مسقوف فى جزء منه بقبوة من الحجارة، أسطوانية نصف دائرية، وفى جزء آخر بقبوة متعارضة.

وتحف بالبوابة بدنتان ضخمتان، فى الواجهة الرئيسية، من ناحية الشمال، أى فى الجهة الخارجة عن سمت الأسوار، وهاتان البدنتان مستطيلتا القاعدة، طول كل ضلع منها ثمانية أمتار وربع المتر، وهما بارزتان خارج البوابة وخارج الأسوار ويبلغ ارتفاع كل منهما إلى القمة اثنين وعشرين مترًا تقريبًا. وينقسم هذا الارتفاع إلى ثلاثة طوابق، يتراجع كل منها تراجعًا خفيفًا عن الطابق الذى يدنوه.

وتتوسط واجهة الطابق الثانى سرر وجامات زخرفية بارزة منحوتة. أما البوابة نفسها فيعلوها عقد مغلق منفوخ[2]، محصور فى إطار زخرفى مستطيل.

وتتوسط حلق هذا العقد لوحة حجرية نُقِشَتْ عليها ثلاثة أسطر من كتابة دينية بالخط الكوفى، يقرأ فيها شعار الشيعة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محمد رسول الله، على ولى

---

(١) «بدىء بعمله فى محرم سنة ثمانين وأربعمائة»، والنص منشور بأكمله فى صفحة ٥٧ من الجزء الأول من كتاب (برشم)، «موسوعة النقوش العربية»:

Van-Berchem, Max, *Corpus Inscriptionum Arabicorum*, 1ère Partie, Egypte, Mémoirés pubiles par les Membres de la Mission Archéologique Française au Caire, Tome XIX, Paris 1894..

(٢) العقد المغلق هو العقد الذى سدت فتحته بالبناء، والعقد المنفوخ، هو الذى جاوزت أطرافه حدود نصف الدائرة.

الله»[1]. وقد وضعت هذه اللوحة فوق عقد منبطح[2] يخفف الضغط على عتبتين مستطيلتين من الحجارة مدتا أفقيا من تحته فوق الباب.

وتتكون هاتان العتبتان من صنج مقصوصة ممشقة فى شكل زخرفى. وكان لنظام تكوين هاتين العتبتين، وخاصة العتبة العليا منهما، شأن كبير فى العمارة الإسلامية بالقاهرة، فى العصر الفاطمى وفى العصور التالية. وهما أقدم أمثلة معروفة لتجميع الصنج المعشقة فى عمارة القاهرة، إن لم يكن فى تاريخ العمارة كلها.

وأقيمت بوابة الفتوح، لوحة رقم (٥)، فى نفس السنة التى أقيمت فيها بوابة النصر، ولكنَّ برجيها، أو بدنتيها، مقوّسا القاعدة، فهما يختلفان شكلاً عن بوابة النصر، كما يختلفان من حيث النظام الداخلى. ويبلغ طول أطراف الواجهة فى بوابة الفتوح ثلاثة وعشرين مترًا، ويقرب ارتفاعها من ذلك. وطول ممرها من الطرف الخارجى فى الواجهة الشمالية إلى الطرف الداخلى فى الواجهة الجنوبية خمسة وعشرون مترًا.

وتبلغ مساحة الفضاء بين البرجين فى كلا الطرفين الشمالى والجنوبى سبعة أمتار ونصف المتر. وتتقارب الجدران أمام العابر من جهة الشمال حتى تضيق فتحة البوابة كما هو الحال فى بوابة النصر، وتتراجع هذه الجدران أربع مرات أخرى، ويتسع الممر حتى يبلغ أربعة عشر مترًا، ثم تتقارب من جديد ويعود الممر إلى السعة التى كان عليها فى الطرف الآخر، وهى سبعة أمتار ونصف المتر. ولهذا التدرج من تراجع وتقارب أغراض عملية فى تنظيم حركة المرور من البوابة، وفى إمكان التحكم فيها. ومن الملاحظ أنه خطط فى شكل بديع من حيث التنسيق والتوازن.

وقد حليت جوانب البرجين بعقدين مغلقين، قصت حجارتهما على شكل وسائد صغيرة متلاصقة، ويظهر هذا الشكل لأول مرة فى تاريخ العمارة على هذا الباب وهو يصور على الحجارة طريقة البناء بالآجر، لوحة رقم (٦). وتظهر على بوابة الفتوح كذلك عتبة من صنج معشقة تعشيقا مبسطا يعلوها عقد منبطح. وقد تعددت العقود على هذه البوابة وتعددت أشكالها الزخرفية، فيها معينات وأزهار ونجوم ومحارات وفصوص، وهى أشكال كان معظمها

---

(١) نقش سطر رابع على العقد المنبطح يقرأ فيه «صلوات الله عليهما، وعلى الأئمة من ذريتهما أجمعين». انظر (برشم)، «موسوعة النقوش العربية»، صفحة ٥٨.

(٢) العقد المنبطح هو العقد الذى لا يرتفع حلقه أو خوصره كثيرًا عن مستوى أطرافه، ويتكون من قطاع أفقى متوس

جاريا فى الزخارف المغربية التونسية. وممر البوابة مسقوف بقبة حجرية أقيمت على مقرنصات مثلثة، وبالأبراج سقف من قبوات متعارضة، جعل مركزها مستديرًا.

أما بوابة زويلة، لوحة رقم (٤)، فهى آخر البوابات تاريخًا، إذ تم بناؤها فى سنة ٤٨٥هـ / (١٠٩٢م). وكانت أمامها زلاقة كبيرة. وقد تغيرت بعض مظاهرها أيام السلطان الأيوبى الملك الكامل، وذكر المقريزى أن بدنتى هذه البوابة كانتا «أكثر علوًا مما هما، هدم أعلاهما الملك المؤيد شيخ» عند بنائه مسجده فى سنة ٨١٩هـ / (١٤١٧م)، وأقام عليهما مئذنتين[1]. وهاتان البدنتان مقوستا القاعدة، شبيهتان ببدنتى بوابة الفتوح، ولكنهما أكثر استدارة. وبوابة زويلة تشغل مساحة مربعة تقريبًا، طول كل ضلع من أضلاعها ٢٥ مترًا. وتتعرج جدران ممرها، تقاربًا وتراجعًا على صورة مشابهة لجدران ممر بوابة الفتوح، كما أن ممر زويلة مسقوف كله بقبة، ولكنها قائمة على مقرنصات مثلثة. وقد اختفت معظم المعالم الزخرفية لواجهة بوابة زويلة، ولكن أهميتها المعمارية مازالت واضحة من بنيانها الراسخ.

وذكر المقريزى أنه قد أخبره من «طاف البلاد، ورأى مدن المشرق أنه لم يشاهد فى مدينة من المدائن عظم باب زويلة، ولا رأى مثل بدنتيه اللتين على جانبيه»[2]. ولم يخطئ الراوى الذى نقل المقريزى عنه، فمازالت هذه البوابة، وبوابتا النصر والفتوح، من أروع الآثار المتخلفة من العمارة الحربية الإسلامية، بل إن كتابا ورحالة أوربيين من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أشادوا بذكر هذه البوابات، وأقروا أنهم لم يروا نظائر لها فى أى مكان، ولم يشاهدوا أكثر منها إبداعًا وتكاملاً ورسوخًا، ولا أقدم منها عمرًا. وأكد (كريسويل) الذى درس أسوار القاهرة وبواباتها دراسة وافية، أنه ليس لها نظائر، وأنه لا تنافسها بوابة أخرى فى العمارة الإسلامية[3].

وقد امتد أثر هذه البوابات إلى بلاد الغرب، فإنه توجد على بوابة كنيسة (واسط) فى شمال فرنسا عقود نقلت أشكالها نقلا عن عقود بوابة الفتوح، وذكر الأستاذ (أنلار) الذى نشر بحثًا عن هذه الكنيسة أنه لا يستبعد أن يكون أحد رجال الحاشية فى السفارة الصليبية التى قدمت

---

(١) انظر المقريزى، «الخطط»، الجزء الأول، صفحة ٣٨١.

(٢) شرحه.

(٣) انظر كتاب (كريسويل)، «العمارة الإسلامية فى مصر»، الجزء الأول، من صفحة ١٦١ إلى صفحة ٢١٦، وخاصة صفحتا ١٦٥ و ١٦٦.

إلى القاهرة لمقابلة الخليفة العاضد ووزيره شاور، وهى السفارة التى أشرت إليها من قبل، قد نقل هذه الأشكال وسجلها على باب تلك الكنيسة تذكارًا لإعجابه[1].

(٢)

المشاهد

لا تقتصر آثار القاهرة الفاطمية على أسوارها وبواباتها، وسأستعرض فى الفصول الثلاثة التالية المساجد الرائعة التى تخلفت عنها، وهى مساجد الأزهر والحاكم والجيوشى والأقمر والصالح طلائع ومشهد السيدة رقية[2]. وقد أنشئت على التوالى فى سنوات ٣٥٩هـ / (٩٧٠م) و ٣٨٠هـ / (٩٩٠م) و ٤٧٨هـ / (١٠٨٥م) و ٥١٩هـ / (١١٢٥م) و ٥٥٥هـ / (١١٦٠م) و ٥٢٧هـ / (١١٣٣م).

وقد أقيمت بمصر وبالقاهرة فى العصر الفاطمى مساجد عديدة أخرى، ولكنها اندثرت. ومن بينها، مسجد راشدة (٣٩٣هـ / ١٠٠٢م) ومسجد المقس الذى أنشأه الحاكم بأمر الله، ومسجد الفيلة، بناه الأفضل شاهنشاه سنة ٤٧٨هـ / (١٠٨٥م)، ومسجد المقياس، أقيم بعد ذلك بسبع سنوات، ومسجد الفاكهيين الذى أنشئ فى عهد الظافر بأمر الله سنة ٥٤٤هـ / (١١٤٩م)، والمشهد الحسينى الذى بناه الفائز بنصر الله فى سنة ٥٤٩هـ / (١١٥٤م)[3]. وقد ذكر ناصر

---

(١) انظر (أنلار)، «الباب العربى لكنيسة واسط»:

Enlart, Camille: *L'Eglise du Wast en Boulonais et son Portail Arabe*, Gazette des Beaux Arts, Tome II, pp. 9, 10; Paris 1927..

(٢) كان مشهد السيدة رقية محسوبًا فى عداد المساجد لا فى عداد الأضرحة كما جاء فى المقريزى، ولهذا أفردت له قسمًا فى الفصول الخاصة بالمساجد.

(٣) بنى الحاكم بأمر الله مسجد راشدة جنوبى الفسطاط بالقرب من مسجد قديم كان يحمل هذا الاسم، وهو اسم قبيلة من قبائل العرب التى قدمت مع عمرو بن العاص عند الفتح الإسلامى. ومسجد المقس الذى بناه الحاكم كذلك كان موضعه خارج أسوار القاهرة بالقرب من باب البحر الذى استحدثه فيها صلاح الدين الأيوبى، وكان هذا المسجد معروفًا فى العصر الفاطمى باسم الجامع الأنور، وكان من عادة الخلفاء الفاطميين أن يؤدوا به صلاة الجمعة الثانية من شهر رمضان. ولم يكن مسجدا الفيلة والمقياس معدودين من المساجد الجامعة. أما مسجد الفاكهيين أو الفكامين، فكان يسمى الجامع الظافرى، وموقعه بالقرب من باب زويلة داخل أسوار القاهرة، وهو المعروف اليوم بجامع الفكهانى، ولكنه لم يتبق شيء من عمارته الفاطمية. فيما عدا مصراعى بابه المحفوظين بالمتحف الإسلامى.

خسرو) أنه كان بالقاهرة ومصر عند زيارته لهما فى سنة ٤٤٠هـ / (١٠٤٨م) خمسة عشر مسجدًا جامعًا، وقال «أما المساجد التى لا تلقى فيها خطبة الجمعة فلم يكن لعددها حصر»(١). وذكر المقريزى أنه كان بجنوبى القاهرة «جبانة» تسمى القرافة الكبرى، وأنها كانت مليئة بالأضرحة والمشاهد المنشأة فى العصر الفاطمى(٢).

ولعل ما ذكره المقريزى عن مسجد القرافة الذى أنشأته امرأة المعز، أم العزيز، فى سنة ٣٦٦هـ / (٩٧٦م)، يرسم صورة واضحة لما كانت عليه مشاهد القرافة الكبرى وأضرحتها. فقد نقل المقريزى عن القضاعى(٣)، أنه كان بمسجد القرافة هذا «بستان لطيف فى غربيه وصهريج، وبابه الذى يدخل منه ذو المصاطب، الكبير الأوسط تحت المنار العالى الذى عليه، مصفح بالحديد إلى حضرة المحراب. والمقصورة من عدة أبواب، وعدتها أربعة عشر بابا مربعة مطوية الأبواب، قدام كل باب قنطرة قوس على عمودى رخام ثلاثة صفوف، (أى إنه كان لهذا المسجد بيت للصلاة فيه ثلاثة أساكيب بكل أسكوب بائكة من أربعة عشر عقدًا)، وهو مكندج، مزوق باللازورد والزنجفر والزنجار وأنواع الأصباغ. وفيه مواضع مدهونة، والسقوف مزوقة ملونة كلها، والحنايا والعقود التى على العمد مزوقة بأنواع الأصباغ من صنعة البصريين وبنى المعلم المزوقين، شيوخ الكتامى والنازوك».

وكانت القرافة متصلة بالقاهرة، وهى «مدفن موتاها»، «وقد بنى الناس بها الأبنية الرائقة، والمناظر البهجة، والقصور البديعة، يسرح الناظر فى أرجائها، ويبتهج الخاطر برؤيتها وبها الجوامع والمساجد والزوايا والربط والخوانق، وهى فى الحقيقة مدينة عظيمة إلا أنها قليلة المساكن»(٤).

وقد تخلفت بعض آثار من المشاهد والأضرحة الفاطمية التى أقيمت فى مصر والقاهرة، سأستعرضها بإيجاز فى الصفحات التالية. ويلاحظ أن معظم هذه الآثار غير ثابت التاريخ وأن ترجيح انتمائها إلى العصر الفاطمى قائم على دراسة عناصرها المعمارية والزخرفية، وهى التى سأشير إليها فى الفصلين السابع والثامن من هذا الكتاب.

---

(١) انظر «سفرنامه»، صفحة ٤٩.

(٢) انظر «الخطط»، جزء ثان، صفحة ٣١٨.

(٣) شرحه.

(٤) انظر القلقشندى، «صبح الأعشى»، الجزء الثالث، صفحتا ٣٧٨ و ٣٧٩.

وأقدم هذه الأضرحة تاريخًا، في رأيي، هو مسجد اللؤلؤة، الذى ذكر المقريزى أنه كان مسجدًا قديمًا متداعيًا فجدده الحاكم بأمر الله وعمره وسماه «اللؤلؤة»، وكان ذلك فى سنة ٤٠٦هـ / (١٠١٥م)، ويقول المقريزى إن بناءه حسن[1]. وهو بناء صغير، تهدمت أجزاء كثيرة منه. والقاعة المتبقية عبارة عن مستطيل طول جدار القبلة فيه خمسة أمتار تقريبًا، وعرض القاعة ثلاثة أمتار تقريبًا. وبجدار القبلة محراب مجوف، وقد فتح فى الجدار المقابل ثلاثة أبواب، الأوسط منها مرتفع. وسقفت القاعة بقبوة أسطوانية. وقد بنيت الجدران من الحجارة غير المنتظمة، أما القبوة فهى من الآجر، ويبلغ ارتفاعها ستة أمتار تقريبًا.

والغريب فى هذا المسجد أو الضريح، أنه كان يعلو هذه القاعة قاعتان شبيهتان بها، وبكل منهما محراب. وهى ظاهرة لم تتبع فى بناء المساجد من قبل أو من بعد[2].

أشار القلقشندى إلى أنه كان بجانب المسجد الحاكم زيادة بناها ابنه الظاهر «ولم يكملها» وأنها أضيفت إلى المسجد فى عهد الصالح نجم الدين أيوب ثم «بنى بها ما هو موجود الآن فى الأيام المعز أيبك التركمانى، ولم تسقف»[3] واتخذ هذا البناء فيما بعد ضريحا أطلق عليه «زاوية أبو الخير الكليباتى».

وقد نسبت هذه الزيادة إلى العصر الفاطمى، بالرغم من نص القلقشندى على أن بناءه قد تم فى منتصف القرن السابع (الثالث عشر الميلادى)، وذلك لأن العقود الحجرية المبنية فيها مدببة شبه مفرجة على هيئة العقود الفاطمية.. والبناء عبارة عن قاعة صغيرة مربعة طول كل ضلع فيها خمسة أمتار تقريبا، ولها سقف من قبوة متعارضة. وأهمية هذه الزيادة ترجع إلى بروزها خارج جدار المسجد[4].

---

(١) انظر «الخطط»، جزء ثان، صفحة ٤٥٦.

(٢) انظر صفحات ١١٣ إلى ١١٥ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل) «العمارة الإسلامية فى مصر». هذا ولا يعتبر المؤلف ضريح (اللؤلؤة) من بين المساجد، وموضوع هذا البناء يتطلب بحثًا لا يتسع له المجال فى هذا الكتاب.

والمتداول أنه لا يقام بناء فوق سقف مسجد، ومن المحتمل أنه يجوز بناؤه فوق سقف الأضرحة. وقد ورد فى هذا أنه جاء فى «المستوعب وابن نعيم، ومن جعل بيته مسجدًا فليس له الانتفاع بسطحه، ولو جعل السطح مسجدًا كان له أن ينتفع بسفله»، انظر صفحة ١٨١ من كتاب «ثمار المقاصد فى ذكر المساجد» لمؤلفه يوسف بن عبد الهادى، المتوفى سنة ٩٠٩هـ / (١٥٠٥م)؛ نشره محمد أسعد أطلس، الجزء الثالث من «مجموعة النصوص الشرقية»، مطبوعات المعهد الفرنسى بدمشق، بيروت ١٩٤٣م.

(٣) انظر صفحتا ٣٦٤ و ٣٦٥ من الجزء الثالث من «صبح الأعشى».

(٤) انظر صفحات ١١٥ إلى ١١٧ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل) المشار إليه.

وتنسب إلى العصر الفاطمى كذلك مجموعة من المبانى معروفة باسم القباب السبع أو السبع بنات[1]، ويعتقد بعض علماء الآثار أن هذه القباب هى أقدم الأضرحة والمشاهد بمصر[2]. وقد تبقت آثار أربعة من هذه الأضرحة وكشف حديثا عن أسس الجدران فى اثنين آخرين. وقد ظهر أنها جميعًا متجاورة، بنيت فى صف واحد غير مستقيم. وقيل إن هذه الأضرحة أقيمت لضم رفات سبعة أفراد من أسرة الوزير أبى القاسم الحسين بن المغربى، الذى كان وزيرًا للحاكم ثم فر إلى مكة. وقد روى المقريزى أن الخليفة الحاكم أمر بالقبض على هؤلاء الأفراد ثم قتلهم، وكان ذلك فى شهر ذى القعدة من سنة ٤٠٠هـ / (يونيو ١٠١٠م)[3].
وتخطيط هذه الأضرحة متشابه. وهو يرسم مربعا داخليًا محاطًا بفناء مكشوف أقيمت حوله جدران على مربع آخر خارجى. وأبنية هذه الأضرحة صغيرة، إذ إن المربع الداخلى فى كل منها يتراوح ضلعه بين ٦ و ٧ أمتار. وجدرانها سميكة يبلغ عرضها مترًا، وفتح فيها باب فى منتصف كل ضلع من أضلاعها.

أما مبانى هذه الأضرحة فهى متشابهة كذلك بالرغم من اختلاف أحجامها اختلافًا يسيرًا، لوحة رقم (٩). وقد تهدمت قبابها، وأجزاء من جدرانها. ويتكون كل منها من ثلاثة طوابق متدرجة، بنى الطابق الأول من الحجارة غير المنتظمة، ويتراوح ارتفاعه بين ثلاثة أمتار ونصف وأربعة أمتار ونصف. وفتح فى منتصف كل واجهة من واجهاته الأربعة باب معقود بعقد مدبب، يكاد يكون منفرجًا. وبنى الطابق الثانى من الآجر، ويتراجع سمت جدرانه من الخارج قليلاً عن سمت جدران الطابق الأول، ويتراوح ارتفاعه بين متر ونصف ومترين. وقد فتحت فى منتصف كل واجهة من واجهاته، فوق أبواب الطابق الأول، نافذة معقودة بعقد شبيه بعقود هذه الأبواب. ويلمس رأس هذا العقد الحد الأعلى لجدار الطابق الثانى ويمتد

---

(١) تقع القباب السبع فى الصحراء الواقعة إلى الجنوب من موقع الفسطاط وهى غير قبة السبع بنات التى تقع بالقرب من خانقاه الناصر فرج بن برقوق، شرقى القاهرة.

(٢) انظر (كريسويل)، صفحة ١٠٧ وما يليهما من الجزء الأول من «العمارة الإسلامية فى مصر» و (هوتكور)، صفحة ٢٢٥ وما يليها من الجزء الأول من «مساجد القاهرة» و (مارسيه)، صفحة ٧٢ من «الفن الإسلامى».

Wiet, Gaston et Hautecur. Louis, *Les Mosquées du Caire*, 2 vols. Paris, Leroux, 1932. Marçais George, L'Art de l'Islam, Pairs. 1947.

(٣) انظر «الخطط»، صفحة ٤٥٩ من الجزء الثانى؛ وكانت هذه الرواية سببًا من أسباب نسبة هذه القباب لهؤلاء الأفراد السبعة وترجيح بناء أضرحتهم فى تلك السنة. وإن صح أن هذه الأضرحة بنيت لتضم رفات هؤلاء الضحايا، فليس من المحتمل أن يكون بناؤها قد تم فى نفس الشهر الذى يتم فيه قتلهم، والأرجح فى تلك الحالة أن يكون قد شرع فى بنائها بعد انتهاء عهد الحاكم، قاتلهم لا أثناء حكمه. أى بعد سنة ٤١١هـ / (١٠٢١م).

طرفاه إلى قمة جدار الطابق الأول. ويمتطى أركان جدران هذا الطابق فى داخل البناء، أى فى كل ركن من أركان الطابق الثانى، مقرنص معقود بعقد شبيه بالنوافذ، ويبلغ ارتفاعه مثل ارتفاعها. وعلى رؤوس هذه المقرنصات الأربعة والنوافذ الأربع أقيم الطابق الثالث، وهو مثمن الأضلاع، ومبنى كذلك من الآجر، تتراجع جدرانه الأربعة القائمة فى واجهات البناء عن جدران الطابق الثانى، مثل تراجع هذه عن جدران الطابق الأول. وهو أقل هذه الطوابق ارتفاعا. وقد فتحت فى منتصف كل ضلع من أضلاعه الثمانية نافذة شبيهة بنوافذ الطابق الثانى، ولكنها أصغر حجمًا وأقل ارتفاعًا. وكان يعلو هذا الطابق قبة كروية. ويستدل على ذلك من وجود المقرنصات فى أركان الطابق الثانى[(١)].

يحوم الشك حول تاريخ هذه الآثار وإذا كنت قد وضعتها فى مقدمة هذا القسم، فذلك لأن المشتغلين بالآثار اتفقوا على نسبتها إلى أوائل القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى). ولم يعثر على مشاهد أو آثار يمكن نسبتها إلى بقية ذلك القرن. أما القرن السادس فقد تخلفت منه، فيما يبدو، جملة مشاهد جديرة بالعناية والدراسة، سألخص المعروف عنها فيما يلى[(٢)].

ذكر ابن دقماق أنه كانت بين القرافة والجبل جملة مشاهد، وأنها كانت قد تهدمت، فأمر المأمون البطائحى بتجديدها فى شهر ربيع الأول سنة ٥١٦هـ / مايو ١١٢٢، «وأولها مشهد السيدة زينب وآخرها مشهد السيدة أم كلثوم»[(٣)]. وقد تبقى من هذا المشهد الأخير ثلاثة محاريب فى جدار القبلة يزدان أوسطها بزخارف جصية بديعة ويتوجه نصف قبة مضلعة ترسم تجاويف ضلوعها على التتابع زاوية فنصف دائرة[(٤)].

---

(١) أثار (هوتكور) أولاً و (كريسويل) ثانيًا، فى المرجعين المشار إليهما فى صفحة سابقة موضوع نشأة المشاهد والأضرحة فى العمارة الإسلامية واتخاذها للقباب عنوانًا لها، واشتقاق تخطيطها وأنظمتها من العمارة فى العصور السابقة. وهو موضوع لا تتسع مناقشته فى مثل هذا العرض السريع. أما موضوع المقرنصات التى أقيمت عليها القباب، والتى كانت العنصر الرئيسى لاتخاذها هذا النظام، فسيتناوله البحث فى القسم الرابع من الفصل السابع من هذا الكتاب.

(٢) سنبحث عناصر هذه الآثار، معمارية وزخرفية، فى الفصلين السابع والثامن من هذا الكتاب.

(٣) انظر صفحة ١٢١ من الجزء الرابع من «كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار»، لمؤلفه ابن دقماق (إبراهيم بن محمد أيدمر العلائى الشهير بابن دقماق والمتوفى حوالى سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٩م)، طبع الجزءان الرابع والخامس بالمطبعة الأميرية سنة ١٣٠٩هـ / (١٨٩٢م).

(٤) انظر (كريسويل)، «العمارة الإسلامية فى مصر»، صفحة ٢٣٩ من الجزء الأول.

يقع بالقرب من المسجد الطولونى بناءان متلاصقان ينسب أحدهما إلى محمد ابن الإمام جعفر الصادق والثانى إلى السيدة عاتكة، عمة الرسول صلى الله عليه وسلم، واسمهما المتداول هو مشهد الجعفرى وعاتكة[1].

وقد بنى مشهد الجعفرى أولاً، ثم ألصق به مشهد عاتكة، ويبدو أن تاريخهما متقارب، وتدل عناصرهما المعمارية وبقية من الكتابة الكوفية على أن البناءين قد أقيما فى الربع الأول من القرن السادس (الثانى عشر الميلادى).

وكل منهما مقصور على ضريح محصور فى مربع طول كل ضلع منه أربعة أمتار تقريبًا، داخل ضريح الجعفرى، وثلاثة أمتار ونصف داخل ضريح عاتكة، ولكل منهما محراب. وقد بنيت أجزاؤهما جميعًا من الآجر الذى كانت تكسوه طبقة من الجص. وترتفع جدران المربعين ثلاثة أمتار ثم يعلو كلاً منهما طابق مثمن الأضلاع، ينتصب مقرنص مركب من حطتين فى كل ركن من أركانه، وتنفتح نافذة ثلاثية الفتحات فى وسط كل من جدرانه الأربعة. وارتفاع هذا الطابق ضئيل لا يبلغ مترين. وتعلوه قبة مبنية من الآجر مثل بقية البناء، وهى كروية مسطحة فى مشهد الجعفرى، ومضلعة من ستة عشر ضلعا فى مشهد عاتكة، وضلوعها بارزة خارج البناء، مقورة فى داخله. وقد تخلفت من محراب مشهد عاتكة زخارف جصية، لها أهمية مثل أهمية القبة والنوافذ والمقرنصات، مما سأشير إليه فيما بعد.

ويقع خارج بوابة النصر، وعلى بعد ٣٥٠ مترًا شمالاً منها، ضريح صغير معروف بقبة الشيخ يونس. وادعى بعض الكتاب أن هذا الضريح هو الذى قصده المقريزى بقوله «حدث فيما خرج من باب النصر تربة أمير الجيوش بدر الجمالى»[2]. وهو ضريح صغير كذلك قائم على مربع طول كل ضلع من أضلاعه الداخلية أربعة أمتار ونصف المتر، وجدرانه سميكة يزيد عرضها عن المتر، وبناؤه من الآجر المكسو بالجص، وفيه محراب مجوف بقيت من زخارفه كتابة كوفية، فى إطار ممتد على جانبى المحراب ومحيط بعقده المنفرج.

وترتفع جدران هذا المربع أربعة أمتار ثم يعلوها طابق ثان مثمن متراجع ارتفاعه يزيد قليلاً عن ثلاثة أمتار. واحتل مقرنص مركب من حطتين كل ركن من أركانه الأربعة، وحدوده ترسم صورة عقد ثلاثى الفتحات. وفتحت فوق المقرنص نافذة على هيئة مشكاة، وكذلك فتح فى

---

(١) انظر شرحه، صفحات ٢٢٨ إلى ٢٣١.

(٢) انظر صفحة ٣٦٤ من الجزء الأول من «الخطط»، وانظر صفحة ٢٣٤ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل)، «العمارة الإسلامية فى مصر».

منتصف كل من الأضلاع الأربعة الأخرى من المثمن نافذتان، واحدة في مستوى المقرنصات، وعلى هيئتها من عقد ثلاثي الفتحات، والثانية تعلوها، في مستوى نوافذ الأركان وعلى هيئتها كذلك، أى في شكل مشكاة. وتعلو القبة هذا الطابق، وهي كروية مدببة مسطحة من الداخل والخارج، ترتفع ثلاثة أمتار ونصف المتر فوق نهاية الطابق الثاني، وهي مبنية مثل بقية المشهد من الآجر.

ويقع بالقرب من مسجد اللؤلؤة مشهد معروف باسم إخوة يوسف. وفيه لوحة مكتوب عليها بالخط الكوفي «هذا قبر إبراهيم بن اليسع بن العيص من سلالة إبراهيم».

وقد اختلفت آراء الكتاب في تحديد تاريخ هذا المشهد، إذ بينما يؤرخه (فييت) في سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م، يحدد (كريسويل) تاريخه بعد ذلك بقرن على الأقل ويضعه ضمن آثار الربع الأول من القرن السادس (الثاني عشر الميلادى)[(١)].

والمشهد صغير في حجمه وشبيه إلى حد كبير في بنائه وتكوينه ونظامه بالمشهد السابق، قبة الشيخ يونس، فيما عدا عقود نوافذه ومقرنصاته فجميعها مدببة مطولة، غير أن هذا المشهد يمتاز بوجود محاريب ثلاثة في جدار قبلته، تجمعها وتحيط بها إطارات زخرفية منقوشة بالكتابة الكوفية، كما يحيط إطار كوفي آخر بعقد محرابه الوسط. ويتوج هذه المحاريب الثلاثة عقود متفرجة.

ومن المشاهد المتخلفة من العصر الفاطمي مشهد الحصواتي الذى لا يعرف شيء عن تاريخه. وهو كذلك مشهد صغير مربع القاعدة، مبنى من الآجر، يتكون من طوابق ثلاثة، الطابق الأرضي، فطابق المقرنصات فالقبة الكروية، الشبيهة هي ومقرنصاتها بقبة إخوة يوسف، غير أنها لا تحوى طابقا مثمنا بين المقرنصات والقبة. ويمتاز هذا المشهد بوجود طاقات محارية حول الواجهات الخارجية لطابق المقرنصات، كما يمتاز بمحرابه البديع الذى يتكون من طاقة محارية من ثلاثة حطات، يحيط بها إطار عريض مستطيل، تمتد عليه كتابة كوفية بديعة على أرضية من الزخارف النباتية[(٢)].

---

(١) انظر (كومب). «مرجع الكتابات العربية»، الجزء السادس، صفحة ٧٣؛ و (كريسويل)، الجزء الأول، صفحة ٢٣٦، من «العمارة الإسلامية في مصر»

Combe. Sauvagat et Wiet, Répertoire Chronologique d'Fpigraphie Arabe. 12 vols.. Le Caire. 1931 - PP. 950.

(٢) انظر صفحتا ٢٥٩ و ٢٦٠ من كتاب (كريسويل) المشار إليه.

ولعل أكبر هذه المشاهد حجمًا، وأكثرها تطورًا هو مشهد يحيى الشبيه الذى لا يعرف تاريخه مثل غيره من المشاهد[1].. وحدود هذا المشهد الخارجية تمتد من ناحية جدارى القبلة والمؤخر ٢٦ مترا تقريبًا ومن ناحيتى الشرق والغرب نصف هذا المقدار، فهو يكوّن مستطيلاً. وينقسم هذا المستطيل إلى جزءين، الجزء الأول يتوسطه الضريح بقبته، ويتقدمه من ناحية القبلة قاعة ممتدة على هيئة بيت للصلاة من أسكوب واحد، فتحت فيه ثلاثة محاريب. وإلى يمين الضريح ويساره ممر مكشوف يتصل بكل منهما بباب معقود بعقد منفرج، متكىء على عمودين عن اليمين وعلى أربعة أعمدة عن اليسار. وكذلك يتصل الضريح ببيت الصلاة أمام المحراب الوسيط بعقد منفرج يتكىء على عمودين من كل جانب.

أما القسم الثانى فيتكون من قاعة مقابلة لبيت الصلاة فى القسم الأول، وصحن يقابل الضريح والممرين الحافين به. وفى هذا الصحن محرابان مجوفان فى الجدار الفاصل بينه وبين القاعة، عن اليمين وعن اليسار. وقد حول هذا الصحن المكشوف فيما بعد إلى بيت للصلاة من ثلاثة أساكيب وثلاث بلاطات.

ويمتاز هذا المشهد بقبته ومحاريبه. أما القبة فهى تشبه إلى حد كبير قبة عاتكة، أى إنها مضلعة مثلها. وتتكون من طابقين، طابق المقرنصات والطابق الكروى، وهما يمتطيان جدارًا مربع القاعدة. ومقرنصاتها مركبة كذلك من طابقين فى كل مقرنص أربع طاقات.

ووجه الخلاف فى القبتين ينحصر فى النوافذ الوسطى بين المقرنصات، فإنها فى مشهد يحيى الشبيه، تتكون من ثلاثة عقود منفرجة يمتطى أعلاهما اثنين من تحته. أما المحاريب فهى متوجة برؤوس محارية ومعقودة بعقود مقرنصة من حطتين أو أربع. وسنرى فيما بعد أن هناك كذلك أوجهًا كثيرة للشبه بين قبة هذا المشهد ومحاريبه وبين قبة مسجد السيدة رقية ومحاريبها.

وأخيرًا يتبقى من العصر الفاطمى مشهد سيدى معاذ، الذى تظهر فوق بابه لوحة كتبت عليها بالخط الكوفى تاريخ بناء المشهد فى سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م، واسم منشئه الأمير

---

(١) بداخل الضريح ٥ توابيت، على اثنين منها لوحات جنائزية، كتب على تابوت منها اسم يحيى بن القاسم الطيب بن محمد المأمون بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب وتاريخ وفاته فى ٢٨ رجب سنة ٢٦٣هـ / أبريل ٨٧٧م. وكتب على التابوت الثانى اسم أخيه عبد الله بن قاسم وتاريخ وفاته فى ١٨ رمضان سنة ٢٦١هـ / يونية ٨٧٥م. وكان يحيى مشهورًا بأنه كان شبيهًا برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا أصبح معروفًا باسم يحيى الشبيه. ومن الواضح أن بناء المشهد لا يرجع إلى هذا التاريخ، وإنما من الجائز أن يكون هذا البناء قد أنشىء فى منتصف القرن السادس (الثانى عشر الميلادى).

أبو الغضنفر الفائزى الصالحى، ولهذا عرف هذا المشهد باسم منشئه هذا واشتهر به. غير أنه توجد داخل الضريح لوحة أخرى كتبت عليها بالخط النسخى أن قبة سيدى معاذ بنيت فى سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦٢م. ولهذا اختلف علماء الآثار فى تحديد تاريخ البناء، فأخذ البعض بالتاريخ الأول[١]، ولم يأخذ البعض بهذا التاريخ للبناء كله، بل بجزء منه هو مئذنته[٢]. والواقع أن عناصر البناء كله توافق تاريخ إنشائه، وأن النص الذى يشير إلى بناء القبة فى سنة ٨٦٦هـ، إنما يقصد به ترميمها وتجديدها، مما يظهر بوضوح فى بنائها.

وأهمية هذا المشهد الصغير تتركز فى قبته ومئذنته معا. أما القبة فهى تمثل نهاية التطور للقباب فى العصر الفاطمى، وأما المئذنة فهى تشبه مئذنة مسجد الجيوشى. وسأشير فيما بعد إلى هذين الجزءين الهامين من مشهد سيدى معاذ.

لم ترع العصور التالية آثار الفاطميين، وانتهبت خزائنهم، وهدمت قصورهم، وتركت معظم مساجدهم ومشاهدهم عرضة لعاديات الزمان والإنسان، ولم يتبق من هذه الآثار إلا نماذج قليلة مما كانت تزهو به القاهرة فى القرنين الأولين من حياتها.

وكان الفضل فى الاحتفاظ بأسوارها يرجع إلى أنها استخدمت فيما بعد لحماية العاصمة وحكامها. وكما كان الفضل فى احتفاظ القاهرة بالمساجد التى سيتناولها البحث فى الفصول التالية يرجع إلى أنها كانت مساجد جامعة، أو أنها اتخذت فيما بعد لهذا الغرض[٣].

□□□

---

(١) انظر (هوتكور) فى «مساجد القاهرة»، الجزء الأول صفحات ٢٤١ و ٢٤٢ و ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٢٥١ و ٢٥٣ و ٢٥٤ و ٢٥٥ و ٢٨٦.

(٢) انظر (كريسويل) فى «العمارة الإسلامية فى مصر»، الجزء الأول، صفحة ٢٧٤.

(٣) فيما عدا مسجد السيدة رقية الذى يرجع الفضل فى بقائه إلى شهرة هذه السيدة والاعتقاد فى بركتها.